حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به ـ العدد التاسع ـ شوال ١٤٤٠هـ / حزيران ٢٠١٩م

باب الثعبان - مسجد الكوفة المعظم

٩

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد محمد مجيد الموسوي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

خزائن الكتب الإسلامية القديمة في الكوفة

الدكتور محمد سعيد الطريحي(*)
رئيس أكاديمية الكوفة في هولندا

تمهيد

اهتم العرب قبل الإسلام بالسماع والحفظ في تناقل الشعر والأخبار أكثر من اهتمامهم بالكتابة والتدوين، فكانت صدور الرواة منهم تعي القصائد الطوال وأخبار العرب السابقين وتزخر بالأمثال السائرة والخطب البليغة يتبارون فيها ويتناقلونها بأسواقهم الأدبية وفي مجتمعاتهم كلما التقوا أو تعارفوا. ومن الثابت أنهم عرفوا التدوين منذ العهود البائدة ودونوا أخبارهم على الأحجار والصخور، إلا أن قلة ما وصلنا من هذه المدونات يفسر لنا اهتمامهم النادر بالتدوين واقتصار الكتابة على فئة قليلة منهم. وكان ظهور الإسلام فاتحة عهد جديد للتدوين عند العرب فانتشرت الكتابة مع دعوة الإسلام انتشارا واسعاً، وقد حث عليها الرسول الكريم(ﷺ) في أحاديثه الشريفة، ومن ذلك قوله:

(قيّدوا العلم بالكتابة) وقوله: (العلم صيد والكتابة قيد)، وفي أعقاب غزوة بدر كان من طرق مفاداة أسرى المشركين أن يعلم الأسير عشرة من المسلمين الكتابة، وكان لرسول الله(ﷺ) كتّاب يكتبون ما يُوحى له(ﷺ) بالخط النسخي المقرر، ونظراً لاهتمام الرسول(ﷺ) بكتابة القرآن الكريم فقد كان الكتبة يكتبون الآيات القرآنية في العسب واللخاف وأحياناً في الحرير وقطع الأديم والأكتاف على عادة العرب بالكتابة على تلك الأشياء، وكان يطلق عليها (الصحف) وعلى تلك (الصحف) كتب لرسول الله(ﷺ)، وجاء في الروايات الصحيحة أن القرآن كان مكتوباً بين يديه(ﷺ) في اللخاف والعسب وأكتاف الإبل، ومما رواه البخاري عن زيد بن ثابت أنه قال: ـ (تتبعت القرآن أجمعه من اللخاف والعسب، وصدور الرجال)

ولم يكن لدى العرب من الكتب المدونة في صدر الإسلام سوى القرآن، وقد ازدادت نسخه زيادة كبيرة في مدة وجيزة، وإذا أخذنا بروايات بعض المؤرخين فإن الكتب العربية في تلك الفترة تشتمل إضافة إلى القرآن الكريم، على ما ألّفه زهير بن ثابت في علم الفرائض، وعبد الله بن عمر في علم الحديث، وخالد بن يزيد في بعض العلوم، وما دونه عمر بن عبد العزيز من الحديث الشريف وبعثه في كتاب إلى الأمصار الإسلامية، ويروى بهذا الصدد، أن عبد الحكيم الجمحي فتح نادياً في مكة جعل فيه دفاتر من كل علم وذلك في النصف الأول من القرن الأول الهجري.

وفي خلافة العباسيين اختلف الأمر كثيراً عما كان عليه في صدر الإسلام حيث اعتنى العرب في العصر العباسي بفن التدوين، ووُضعت مسانيد الحديث، وألفت الكتب في كل صقع واهتموا حينئذ بإنشاء دور الكتب وهي عبارة عن خزانات عامة للكتب يخصص أحد جوانبها لمطالعة الكتب ونسخها وتكون الدور المذكورة موئلاً للعلماء والباحثين يناقشون فيها ويبحثون مختلف المواضيع وتقوم تلك الدور أحياناً وبصورة عرضية بمهمة تعليمية، لا سيما أن بعض روادها يقصدونها من أماكن بعيدة ويقيمون فيها مدة طويلة، وأن القائمين على تلك الخزانات يسهمون بنفقات أولئك الرواد، ويمكن تصنيف خزانات الكتب التي ظهرت في هذه الفترة، على ثلاثة أصناف:

(١) **خزانات عامة**: وهي خزانات الكتب الملحقة بالمدارس والمساجد والرُّبُط والمارستانات وكانت تعير الكتب للطلاب وأصبح لهذه الخزانات نظم تسيّر عملية الإدارة والإعارة والاستنساخ.

(٢) **خزانات خاصة**: وهي الخزانات الشخصية التي كانت في بيوت الخلفاء والولاة والعلماء والأدباء والأثرياء من الناس.

(*)مستل من مجلة المورد – بغداد – المجلد التاسع – العدد الرابع ١٤٠١ هـ – ١٩٨٠م.

(٣) خزانات بين العامة والخاصة: وكان استعمالها مقتصراً على طبقة معينة من العلماء والطلاب، ومن أشهر الخزانات في ذلك العهد خزانة دار الحكمة التي أنشأها الرشيد وازدهرت كثيراً في خلافة ابنه المأمون، وقد حوت هذه الخزانة على العديد من الكتب القيمة وكان فيها إلى جانب الكتب العربية المخطوطات اليونانية والفارسية والسريانية وغيرها.

وفي جميع الخزانات العامة وبعض الخزانات الخاصة أماكن للنساخة والترجمة والتجليد وكان الكتبة يتأنقون كثيراً في اختيار الورق والحبر الذي يستعملونه ويزينون فواتح الكتب ويموهونها بالذهب على أنواع وأشكال لا تحصى، وامتازت الكتب الخطية بالخطوط الجميلة المنسوبة إلى أشهر الخطاطين كابن البواب، وابن مقلة، وياقوت المستعصمي، وكانت الكتب تعار مقابل رهن حافظ لقيمتها، إما إدارة خزانة الكتب فكان يتولاها أحد العلماء المشهورين ويطلق عليه (الخازن) يساعده في ذلك المشرفون والمناولون، وقد خصصت لهم الرواتب والجرايات.

وقد أدَّى هذا الولع الشديد بالكتب واقتنائها في البلاد العربية والإسلامية إلى ظهور صنعة الوراقة وتشمل هذه الصنعة نسخ الكتب وتجليدها وبيعها وبيع الورق وسائر أدوات الكتابة كالأقلام والحبر وغير ذلك، وكان الوراقون يعنون بتزويق بعض الكتب الخاصة وتصويرها وتذهيبها استجابة لأذواق محبي الكتب من الأمراء والأثرياء، وقد نتج عن إقبال الناس على الكتب ازدهار صناعة الورق التي تعلمها العرب من الصينيين، ومن العرب انتقلت إلى سائر أنحاء أوروبا فكانت من العوامل الممهدة للنهضة العلمية الحديثة.

وكان في بغداد ودمشق والقاهرة والأندلس وغيرها من حواضر البلاد الإسلامية المئات من دكاكين الوراقين، ولم يكن الوراقون مجرد باعة للكتب أو نساخين لها، بل كان منهم علماء وأدباء ذوو ثقافة عالية كابن النديم وياقوت الحموي وأبي حيان التوحيدي وأبي موسى الحامضي وابن الهيثم، ويجتمع في دكاكين الوراقين عادة العلماء والفلاسفة والأدباء فيقرأون الكتب ويناقشونها ويتناظرون في مختلف فنون العلم والمعرفة. واصطلح العرب على الورق أبعاداً قياسية وخصَّصوا كلًّا منها لنوع من الكتابات فكانت الورقة الكاملة تسمى (الطومار) ويُكتب للخلفاء في قرطاس من ثلثي طومار، وللأمراء من نصف طومار، وللعمال والكتاب من ثلث طومار، وللتجار وأشباههم من ربع طومار، وللحساب والمساح من سدس طومار، ومن أنواع الورق التي شاعت في البلاد العربية والإسلامية هي: السليماني، والطلحي، والنوحي، والفرعوني، والجعفري، والطاهري، والخرساني، وغيرها، وبالرغم من توفر الورق فقد كتبت بعض الكتب على الجلود والعظام والبردي.

وقد حفلت العاصمة والحاضرة العربية الشهيرة (**الكوفة**) في عهد ازدهارها الفكري بحقل من الحقول الثقافية المهمة وهو ميدان (خزانات الكتب) الذي أسهم إسهاماً كبيراً في تطوير الحركة الفكرية فيها، ورفد نهضتها بالعقليات الفذة من رجال الدين الذين كان لهم أعمق الأثر في التاريخ العربي والإسلامي.

ويمكننا استجلاء الصور الواضحة عن خزائن الكتب الكثيرة التي كانت تحفل بها الكوفة آنذاك في بيوت علمائها وأدبائها يوم كانت مركزاً لإعلام الحديث والتفسير واللغة والفقه والتاريخ والأدب، وقد كثرت مؤلفاتهم ونتاج قرائحهم وبلغت الآلاف المؤلفة، ولا شك أن كل أمير وعالم وشاعر وأديب من هؤلاء الأعلام كان يحتفظ في داره بخزانة كتب قيمة فضلاً عن المتعلمين وأصحاب الذوق وعشاق الأدب.

ونوَّه صاحب كتاب الحوادث الجامعة بشغف أهل الكوفة في المتاجرة بالكتب وأنهم كانوا يجلبون إلى بغداد الأطعمة ويبتاعون بأثمانها الكتب النفيسة[١].

ومن الطبيعي أن تقوم إلى جانب النهضة الأدبية والتأليفية بشكل عام سوق الوراقة، تضم الكتب على أشكالها ومرَّت الإشارة إلى أن هذه المهنة لم تكن مقصورة على بيع الكتب للراغبين في حيازتها وإنما كانت محالها مراكز ثقافية، فهي ملتقى للمفكرين الذين كثيراً ما كانت تدور بينهم الأحاديث والمناظرات في شؤون الفكر، وتضم هذه المراكز كل الأعمال التي تسبق حياة الكتاب، من رواية ونسخ، وتقوم فيها الخدمة المكتبية غير الموقوفة بزمن في ليل ونهار على خير ما تؤدي خزائن الكتب رسالتها، وما يتعلق بتاريخ الوراقة في الكوفة فقد جاءنا أنها صارت في أواخر العصر الأموي مهنة غير مريحة[٢]. إلا أنها استعادت نشاطاتها واحتفظت بحيويتها لقرون عدة، وكان موقع سوق الوراقين بالكوفة في شمال المسجد الجامع على ما ذكر لويس ماسنيون[٣].

وعُرف الوراقون بأنهم ذوو علم وأدب وذوق فني يهرع إليهم المتأدبون فيأنسون ويجدون عندهم الهداية لخير ما يعرفون، وتخرج من دكاكين الوراقة علماء وأدباء قادوا النهضة الفكرية في العالم العربي والإسلامي، وبرزت آثارهم بين

(١) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة المنسوب لابن الفوطي (أخبار بغداد بيد المغول سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) بتحقيق د. مصطفى جواد. طبع ١٣٥١هـ

(٢) انظر الأغاني ٨٧/٢

(٣) خطط الكوفة /٢٦ صيدا.

التراث الثقافي كمراجع مهمة للدارسين، وقد حدثنا التأريخ عن الشاعر الشهير أبي الطيب المتنبي الذي عاش في الكوفة أنه كان في صباه يتردد إلى حوانيت الوراقين هذه، فأفاد مما فيها من كتب ومصنفات.

وذكر أحد الوراقين لمحمد بن يحى الزيدي، قال: ما رأيت أحفظ من هذا الفتى ابن عبدان قط قال محمد: كيف؟ فقال: كان اليوم عندي وقد أحضر رجل كتاباً من كتب الأصمعي يكون في نحو ثلاثين ورقة لبيعه، قال: فأخذ ينظر فيه طويلاً فقال له الرجل: يا هذا أريد بيعه وقد قطعتني عن ذلك، فإن كنت تريد حفظه فهذا بعيد في مثل هذه المدة. فقال له: إن كنت حفظته فمالي عليك؟ قال: أهب لك الكتاب، قال: فأخذت الدفتر من يده فأقبل يتلوه إلى آخره ثم استلبه وجعله في كُمِّه وقام[١] وهذا مثلٌ على ما كان يجري في محال الوراقين ومثله جم كثير.

ومن الجدير بالذكر أن ورّاقي الكوفة استعانوا بالجلود الكوفية لغرض الكتابة عليها والتجليد بها ومن اجل ذلك نشأت إلى جانب مهنة الوراقة صنعة دباغة الجلود. قال ابن النديم (إن الدباغة في أول الأمر كانت بالنورة وهي شديدة الجفاف ثم كانت الدباغة الكوفية تدبغ بالتمر وفيها لين..)[٢]، وورد ذكر الكوفية في نصوص عديدة[٣]، وحفلت كتب التواريخ والسير والتراجم بأسماء العديد ممن اشتهروا بأعمال الوراقة في الكوفة ونسبوا إلى صنعتهم هذه، ومنهم (الأشعريون الوراقون) الذين أشار لهم ابن حجر في ترجمته لمحمد بن قيس الأشعري[٤].

ومنهم علي بن نعيم الصحاف أحد رجال الحديث في الكوفة[٥]، وإسماعيل بن إبان الأزدي الكوفي الوراق المتوفى سنة ٢١٦ هـ[٦]، ومساور الوراق[٧]، وبكر بن خارجه[٨]، ومحمد بن عبد الواحد الكوفي[٩]، وإبراهيم بن نعيم الصحاف الكوفي[١٠]، والحسن بن حماد الوراق الصيرفي الكوفي[١١]، وسعيد بن محمد الوراق الثقفي الكوفي[١٢].

وقبل أن اختتم هذا التمهيد أرى من الواجب الإشارة إلى (الخط الكوفي) وهو الخط الشهير الذي يرتبط وثيقاً بالكتابة العربية والذي ظهر ونشأ في الكوفة فقد لعب هذا الخط دوراً كبيراً في الحضارة العربية والإسلامية فاستُعمل في كتابات المصاحف وقطع المسكوكات وفي العمائر وشواهد القبور وسائر الكتابات التذكارية. وانتشر الخط الكوفي في مختلف الأصقاع الإسلامية واستعمل كثيراً حتى تعددت قواعده وأنواعه وقد ذكر التوحيدي من هذه القواعد في عصره اثنتا عشرة قاعدة هي: الإسماعيلي، والمكي، والمدني، والأندلسي،والشامي، والعراقي، والعباسي، والبغدادي، والمشعب، والريحان، والمجود، والمصري، بيد أن هذه القواعد لم تكن تختلف عن الخط الكوفي الأصيل وإنما تميزت بأسماء إقليمية نسبت إليها.

والخط الكوفي الأصيل فيما حققه الدكتور إبراهيم جمعة كان على ثلاثة صور: (صورة يابسة صعبة الإنقاد، ثقيلة لا يقوى عليها كل إنسان ولا تتطلبها إلا المناسبات الجليلة واصطلح عليها اسم الخط الكوفي التذكاري، وصورة أخرى مخففة لينة تجري بها يد الكاتب في سهولة وإسراع يستطيعها كل إنسان حذق الكتابة، وهي خط التحرير، وصورة ثالثة يمكن اعتبارها جمعاً بين النوعين وهي إلى الثقل أقرب لم يكن ليقوى عليها إلا قلة من الناس وكانت تتصف بالجلال لخط المصاحف على هيئتها).

ولم تقتصر الكوفة على استعمال الخط الذي ابتكرته وإنما تعدَّى ذلك إلى استعمال الكثير من الخطوط الأخرى التي تميل إلى الليونة لتدوين المراسلات والكتب إلى عمال الدولة وولاتها يوم كانت حاضرة العالم الإسلامي، وحذقت بعض الصور من خطوط الحجاز تطورت فيها أو بقيت على حالتها التي كانت عليها، استعملت في حينها للأغراض العلمية والأدبية في تدوين الكتب والمصنفات.

خزانة المشهد الطاهر

هذا المشهد من مشاهد الكوفة القديمة، ولا تتوفر لدينا معلومات عنه ـ حتى الآن ـ غير الخبر الذي ذكره علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس الحسني الحسيني المتوفى سنة ٦٦٤ هـ ـ ١٢٢٥م في كتابه: سعد السعود، ضمن

(١) انظر: سرح العيون لابن نباتة /١٥ وما بعدها ط الأولى مصر ١٩٥٧ ونشوار المحاضرة ٢٤٦/٤ والمنتظم ٢٥/٧ ولسان الميزان ١٦٠/١.

(٢) ابن النديم: الفهرست /٢١

(٣) ومن ذلك قول الجاحظ في الحيوان ٦١/١: (وقيل لابن داحة وأخرج كتابي أبي الشمقمق، وإذا هو في - جلود كوفية - ودفتين طائفتين بخط عجيب..).

(٤) ابن حجر: الإصابة ٢٦٣/٣ رقم ٨٨٠٤ .

(٥) رجال النجاشي ط طهران. رجال الطوسي /٣٣١ وفيه أنه من أصحاب الإمام الصادق.

(٦) ميزان الاعتدال ٢١٢/١. تهذيب التهذيب ٢٦٩/١ - ٢٧٠.

(٧) شاعر كوفي من طبقة حماد عجرد فيه دعابة تلك الطائفة إلا أنه من المتصلين بالبيئات الدينية في الكوفة انظر الأغاني ١٦٨/١٦. البيان والتبين ٨٨/٣. تهذيب التهذيب ١٠٢/١٠.

(٨) شاعر كوفي ماجن، كان يتكسب من الوراقة ويعاشر الشراب انظر الأغاني ٨٧/٢٠ - ٨٨. الديارات /٢٤٢.

(٩) ممن عاصر صاحب الأغاني انظر الأغاني ٢٤٩/٢ ومواضع أخرى من الأغاني.

(١٠) رجال الطوسي /٣٧ في أصحاب الصادق. جامع المقال للطريحي/٥٣.

(١١) المتوفى سنة ٢٣٨هـ انظر تهذيب التهذيب ٢٧٢/٢. تقريب التهذيب ١٦٥/١. خلاصة تهذيب الكمال /٦٦ الجرح والتعديل ١ ق ٩/٢.

(١٢) انظر عنه: ميزان الاعتدال ١٥٦/٢. تهذيب ٧٧/٤ المغني في الضعفاء رقم ٢٤٤٨.

فصل منه عقده لما رآه في كتاب منفرد نحو أربع كراريس بقالب الثمن قال عنه: (وجدته في وقف المشهد المسمى بالطاهر بالكوفة عليه مكتوب سنن إدريس، وهو بخط عيسى محرره، نقله من السرياني إلى العربي، عن إبراهيم بن هلال بن إبراهيم الصابي الكاتب من الكراس الثاني من أول قائمة منه في صفحتها الثانية ما لفظه: اعملوا واستيقنوا أن تقوى الله هي الحكمة الكبرى، والنعمة العظمى والسبب الداعي إلى الخير، والفاتح (بواب الخير والفهم والعقل.. الخ [١]).

خزانة أبي بكر ابن الأنباري المتوفى ٣٢٨هـ - ٩٣٩م

أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن الحسن الأنباري، من أهل الكوفة النابهين، كان كثير الحفظ واسع الإطلاع وقد أكثرت كتب التراجم والرجال من مدحه والثناء على علمه الجم وأدبه الغزير، واتفقت المراجع على أنه كان أكثر الكوفيين حفظاً للغة والشواهد، قال أبو علي القالي: (كان يحفظ فيما ذكر ثلاثمائة ألف بيت شاهد في القرآن، وله أوضاع شتى كثيرة، وكان ثقة ديّناً صدوقاً وكان أحفظ من تقدم من الكوفيين)[٢]. وقال محمد بن جعفر التميمي (ما رأيت أحفظ من ابن الأنباري، ولا أغزر بحراً، حدثوني عنه إنه قال: أحفظ ثلاثة عشر صندوقاً)[٣].. ومما روي عنه أنه كان يُملي في ناحية من المسجد (مسجد الكوفة) وأبوه من ناحية أخرى، ومرض فعاده أصحابه، فرأوا من انزعاج والده أمراً عظيماً، فطيبوا نفسه، فقال: كيف لا انزعج وهو يحفظ جميع ما ترون وأشار إلى خزانة مملوءة كتباً..[٤].

خزانة داود بن نصير الطائي: المتوفى ١٦٠هـ-٧٧٦م أو ١٦٥ -٧٨١م

أبو سليمان داود ين نصير الطائي الكوفي الفقيه الزاهد المحدّث، من أتباع التابعين بالكوفة، حدث عن عبد الملك بن عمير وإسماعيل بن أبي خالد والأعمش، وحدّث عنه عبد الله بن إدريس وجماعة. وكان قد قدم بغداد أيام المهدي العباسي ثم قفل راجعاً إلى الكوفة وقد تبدلت حياته إلى العزلة والانفراد مع الزهد والتقشف والعبادة حتى قال عنه محارب بن ثار (المحدّث الكوفي): (لو كان داود في الأمم الماضية لقصّ الله علينا من خبره)، وروي أن سبب انقطاعه أنه مرَّ يوماً بامرأة عند المقابر تقول (يا يحيى ليت شعري بأي خديك بدا البلا.). وذكر ابن سعد أن داود سمع الحديث والفقه وعرف النحو وعلم أيام الناس وأمورهم ثم تعبّد فلم يكن يتكلم في ذلك بشيء. ووصفه ابن حبان بقوله: (الطائي العابد أبو سليمان، ممن تخلى وتزهد وتجرد وتعبد، وقنع بلزوم الفقر الجهيد، والحمل على النفس بالجهد الشديد.)

أما ما جاء عن خزانة كتبه فإنه عمد إلى تفريقها في مياه نهر الفرات، وقيل أنه دفنها في الأرض[٥]. وفي ذلك ضياع لثروة فكرية لا تقدر، والحق أن مثل هذه العادات غير محمودة وهي من الآفات التي أضاعت علينا طائفة كبيرة من التصانيف ولم تكن الكوفة الحاضرة الوحيدة التي تعرضت لمثل هذه العادات فقد كانت منتشرة في الكثير من الحواضر، ومرد ذلك قلة التدبير والجهل والتعصب وهذا الجانب مما تعرضت له المكتبة العربية وواجهته من أحداث الحياة، فضاع منها ما ضاع، وبقي منها ما بقي مجهولا جمه غفير، معروفاً قليله النزر[٦].

خزانة محمد بين عبيد الله الفزاري المتوفى ١٥٥هـ - ٧٦٧م

محمد بن عبيد الله بن أبي سليمان العرزمي الفزاري، أبو عبد الرحمن أحد المحدثين الكوفيين ممن سمع سماعاً كثيراً، وفي طليعة من أخذ عنهم الحديث عطاء بن أبي رباح وعطية العوفي ومكحول ونافع وأبي إسحاق السبيعي وغيره وعنه ابنه عبد الرحمن وشعبة وشريك. وكان يُعدُّ من القراء الصالحين وقد أخذ القراءة عن عاصم وروى القراءة عنه أبو عاصم الضرير، وحدث عنه سفيان الثوري وآخر من روى عنه موتاً قبيصة وعرف بالعرزمي نسبة إلى جبّانة عرزم في الكوفة

(١) ابن طاووس: سعد السعود، راجع ص ٢٩ وما بعدها. المطبعة الحيدرية في النجف ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م.قال محمد سعيد الطريحي: ولعله يقصد بكلامه (المشهد الطاهر) في النجف الأشرف، فمن المعلوم أن اصطلاح مشهد الكوفة في كلام المتقدمين يقصدون به مشهد الامام أمير المؤمنين في النجف.

(٢) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين ط١ (١٧١ - ١٧٢) ط٢ (١٥٢ - ١٥٤).

(٣) ابن عماد: شذرات الذهب ٣٥١/٢.

(٤) ياقوت: معجم الأدباء ٣٠٦/١٨ (القاهرة) وانظر عن ابن الأنباري: أنباه الرواة ٢٠١/٣. الأنساب /٢٤٩. بغية الوعاة ٩١/١. ابن خلكان ٥٠٢/١. روضات الجنات /٦٠٨، الفهرست /٧٥ ، النجوم الزاهرة ٢٦٩/٣ . الإنصاف /٦٧. همع الهوامع ٢١١/١ - ١٦١ . شرح الرضي على الكافة ١٣٧/١ - ٢٢٣. نزهة الألباب/ ١٩٧ - ٥٠٤.

(٥) ذكر البقاعي في حاشيته على شرح الألفية للزين العراقي، قال: سألت شيخنا - يعني به ابن حجر العسقلاني - عما فعل داود الطائي، وأمثاله عن إعدام كتبهم، ما سببه؟ فقال: لم يكونوا يرون أنه يجوز لأحد روايتها لا بالإجازة ولا بالوجادة، بل يرون أنه إذا رواها أحد بالوجادة يضعف، فرأوا أن مفسدة إتلافها أخف من مفسدة تضعف بسببهم (كشف الظنون ٥٢/١).

(٦) ترجم لداود الطائي في: طبقات ابن سعد ٢٥٥/٦ مشاهير علماء الأمصار /١٦٨ - ١٦٩. المعارف/٥١٥. طبقات الأولياء/٢٠٠ تاريخ بغداد ٣٤٧/٨ رجال الطوسي/٣ (أصحاب الصادق). تهذيب التهذيب ٢٠٣/٣. الجواهر المضية ٢٣٩/١ - ٢٤٠ و ٥٣٦/٢ - ٥٠٤. وتاريخ البخاري ٢٤٠/٣ (الدال) وروضة الناظرين للوتري /٢٦ - ٣١ وزهاد الكوفة للطريحي - خ -، طبقات الصوفية /٨٥، اللباب ١٠٢/٢، ١٢٩/٣، الكواكب الدرية ١٠٣/١، كشف المحجوب /١٠٩ - ٣٢٤.

وكان قد نزل بها، وهو ممن دفن (خزانة كتبه) فكان بعد ذلك يحدث من حفظه ولذا ضعفه بعض المحدثين[١].

خزانة علي بن مُسْهِر القرشي المتوفى ١٨٩هـ -٨٠٤م

أبو الحسن على بن مسهر القرشي (بالولاء) الحافظ أخو عبد الرحمن قاضي جَبُّل كان ثقة جمع الفقه والحديث، وولي قضاء الموصل ثم قضاء أرمينية، ولما قدم أرمينية اشتكى عينه فقال قاض كان قبله للكحال: (أكحِّله بما يذهب عينه ثم أعطيك مالاً) فكحله فذهبت عينه، فرجع إلى الكوفة أعمى، وعدّ في عصره من المحدثين الثقات روى له البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، وكان قد دفن (خزانة) كتبه وهو من مُتْقِي أهل الكوفة[٢].

خزانة سفيان الثوري ولد ٩٧هـ -٧١٥م توفي ١٦١هـ -٧٧٧م

أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله الثوري، من قبيلة عربية، مضرية الأصل، شهيرة بالكوفة، وكان من أئمة العلم في الحديث والفقه، سمع الحديث على أبي إسحاق السبيعي الكوفي، والأعمش ومن في طبقتيهما، وكان من حفظة الحديث وغيره من العلوم وقد كتب له (المهدي العباسي) عهداً على قضاء الكوفة على أن لا يعترض عليه في حكم ودفعه إليه، فأخذ العهد فرمى به في نهر دجلة واختفى بالبصرة وظل بها مستتراً عن (المهدي) حتى موته، وقد أوصى إلى عمار بن سيف في كتبه فمحاها وأحرقها، وللثوري جملة كتب ألفها في الحديث والتفسير والفقه وغيرها من العلوم ومن تصانيفه الجامع الكبير في الحديث والفرائض، وتفسير القرآن، وقد طبع الأخير في الهند بعناية السيد امتياز علي عرشي.

ذكر الخطيب البغدادي أن أصحاب الثوري كانوا يأتونه في بيت يحيى بن سعيد القطان[٣] (وهو مكان اختفائه بالبصرة) فإذا سمع بصاحب حديث بعث إليه، وكان يقول ليحيى: تريد مثل أبي وائل عن عبد الله، أين تجد كل وقت هذا؟ اذهب إلى الكوفة فجئني بكتبي أحدثك، فأجابه يحيى: أنا اختلف إليك وأخاف على دمي، فكيف أذهب فآتي بكتبك!

وروى الخطيب أيضاً بإسناده عن أبي الأسود الحارثي قال: خاف سفيان شيئاً فطرح كتبه (أي دفنها) فلما أمن، أرسل إليَّ وإلى يزيد بن توبه المرهبي، فجعلنا نخرجها فأقول: يا عبد الله، وفي الركاز الخمس، وهو يضحك فأخرجنا تسع قمطرات كل واحدة إلى ها هنا، وأشار إلى أسفل من ثدييه، قال، فقلت له: أعرض لي كتاباً فحدثني به. وقد عقب ابن الجوزي على دفن سفيان لكتبه قائلاً: أن من دفن كتبه لسبب مشروع كان يكون فيها أشياء مدخولة لم يستطع تمييزها أو لم يشأ نشرها فلا بأس به ومثل ذلك فعل سفيان الثوري وبعض الأكابر.. هذا ولم يعقب سفيان أحداً فأوصى بما عند لأخته وولدها ولم يورث أخاه المبارك بن سعيد الثوري المتوفى سنة ١٨٠هـ[٤].

خزانة عطاء بن مسلم الخفاف -القرن الثاني للهجرة -

أبو مخلد عطاء بن مسلم الكوفي، روى عن الأعمش، وجعفر بن برقان، ومحمد بن سوقة والثوري، وواصل الأحدب وجماعة، وحدَّث عنه محمد بن المبارك الصوري، وموسى بن أيوب النصيبي، وكان من أهل الكوفة، ممن اتسم بالصلاح والتقى وكان قد نزل حلب في فترة من حياته، وورد عنه أنه دفن - خزانة كتبه - قبل وفاته[٥].

خزانة أبي كريب الهَمْداني المتوفى ٢٤٣هـ -٨٥٧م أو ٢٤٨هـ -٨٦٢م

أبو كريب محمد بن العلاء بن كريب الهمداني الكوفي الحافظ وكان من محدثي الكوفة الأجلاء، منزله بموضع يسمى المطمورة. وهو من مشايخ النسائي وممن روى الحروف عن أبي بكر عن عاصم وقد أكثر من رواية الحديث، وورد عنه أنه كان يحفظ ثلاثمائة ألف حديث، وأوصى قبل وفاته بأن تدفن كتبه معه فدفنت[٦].

خزانة ابن عقدة ولد ٢٤٩هـ -٨٦٢م توفى ٣٣٢ هـ -٩٤٣م

الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد بن عبد الرحمن بن زياد بن عبد الله بن زياد بن عجلان، مولى عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني السبيعي، والمعروف بابن عقدة، وعقدة لقب لوالده (لقب به لعلمه بالتصريف والنحو، وكان يورق بالكوفة ويعلم القرآن والأدب).

وقال النجاشي عن ابن عقدة (هذا رجل جليل في أصحاب الحديث مشهور بالحفظ والحكايات تختلف عنه في الحفظ وكان كوفياً جارودياً على ذلك حتى مات) وذكره الدار قطني فقال:

(١) ترجمته في غاية النهاية ١٩٤/٢. ميزان الاعتدال ٦٣٥/٣ - ٦٣٧. تهذيب التهذيب ٣٢٢/٩- ٣٢٤.

(٢) ترجمته في مشاهير علماء الأمصار /٧١. نكت الهميان /٢١٩. تهذيب ٣٨٣/٧.

(٣) يحيى بن سعيد القطان كان من المحدثين البصريين نوفي سنة ثمان وتسعين ومائة في البصرة ابن سعد ٢٩٢/٧ المورد - العدد الرابع/ مج ٩، ١٩٨٠.

(٤) ينظر عن سفيان: الفهرست/٣١٥ مصر، تاريخ بغداد ١٦٠/٩. صيد الخاطر /٣١ - ٣٣. حلية الأولياء ٣٥٦/٦ طبقات الفقهاء/٦٥، تهذيب الأسماء ٢٢٢/١. وفيات الأعيان ٢١٠/٣. تهذيب التهذيب ١١١/٤ - ١١٥. غاية النهاية ٣٠٨/١. مشاهير علماء الأمصار/١٦٩ - ١٧٠. المعارف /٤٩٧. النجوم الزاهرة ٣١٨/٢. خزائن الكتب القديمة/١٩٢. الغدير ٧٦١/١.

(٥) انظر تهذيب التهذيب ٢١١/٧ - ٢١٢، والمغني رقم /٤١٢٨.

(٦) انظر معجم البلدان، مادة كوفة. الكامل في التاريخ ٧٩/٧. تذكرة الحفاظ ٧٢/٢. طبقات ابن سعد ٢٨٩/٦ ليدن. خصائص أمير المؤمنين للنسائي /٩٣. تهذيب التهذيب ٣٨٥/٩. شذرات الذهب ١١٩/٢. طبقات القراء ١٩٧/٢.

(أجمع أهل الكوفة أنه لم يرو من زمن ابن مسعود أحفظ من أبي العباس ابن عقدة، وحدّث أحمد بن الحسن بن هرثمة قال: كنت بحضرة ابن عقدة، أكتب عنه، وفي المجلس هاشمي فجرى حديث الحفاظ فقال أبو العباس: أنا أجيب ألف حديث من أهل بيت هذا سوى غيرهم ـ وضرب بيده على الهاشمي ـ

ولابن عقدة كتب كثيرة منها: التاريخ ـ السنن ـ الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم ـ فضل الكوفة ـ تفسير القرآن ـ صلح الحسن ومعاوية ـ الثوري ـ الطائر ـ النبي والصخرة والراهب ـ أخبار أبي حنفية ومسنده ـ الولاية ومن روى حديث غدير خم ـ وغيرها. وأشار فريق من الباحثين إلى خزانة كتب ابن عقدة، ومما قالوا: أراد أبو العباس أن ينتقل من الموضع الذي كان فيه إلى موضع آخر، فاستأجر من يحمل كتبه وشارط الحمالين أن يدفع لكل واحد منهم دانقاً، ولكل كرَّة، فوزن لهم أجورهم مائة درهم، وكانت كتبه ستمائة حمل..[1].

خزانة قطب الدين الأقساسي الحسيني المتوفى ـ ٦٤٥

أبو عبد الله النقيب قطب الدين الحسيني بن أبي محمد علم الدين الحسن بن علي بي أبي الحسين حمزة بن أبي الحسن محمد كمال الشرف بن أبي القاسم الحسن بن أبي جعفر محمد بن أبي الحسن علي بن محمد الأقساسي بن أبي الحسين يحيى بن الحسين ذي الدمعة بن زيد الشهيد بن الإمام علي زين العابدين (ع) الأقساسي، العلوي، الحسيني. أحد شعراء وأدباء الكوفة وساداتها الأشراف، وكان ظريفاً طيب الفكاهة حاضر الجواب، تولى نقابة النقباء ببغداد بعد عزل قوام الدين أبي علي الحسن بن معد المتوفى ٦٣٦هـ

وروي أنه بدرت منه كلمة على وجه التصحيف وهي (أردنا خليفة جديد) فاستاء لها الخليفة الناصر، وأمر بتقييده وحمله إلى الكوفة وسُجن فيها فلم يزل محبوساً إلى أن استخلف الظاهر سنة ٦٢٣هـ فأمر بإطلاقه فلما استخلف المستنصر بالله سنة ٦٢٤ هـ رفق عليه فقربه وأدناه ورتبه نقيباً وجعله من ندمائه ومن شعره قوله يمدح الأمير سليمان بن نظام الملك متولي المدرسة النظامية من قصيدة قالها سنة ٦٣٧ هـ:

يا بن نظام الملك يا خير من ... تاب ومن لاقى به الزهد
يا بن وزير الدولتين الذي ... يروح للمجد كما يغدو

ومنها:

لا يقصد الناس إلى دورهم ... لكن إلى منزلك القصد
وخدمة الناس لها حرمة ... وكان ما يفعله يبدو
والناس قد كانوا رقوداً وقد ... أيقظتهم فانتبه الضد
ليهنك الرشد إلى كل ما ... يضل عنه الجاهل الوغد
وقمت لله بما يرتجي ... بمثله الجنة والخلد
فاصبر فما يدريك غايات من ... يطلب إلا الحازم الجلد

وكانت له بالكوفة خزانة كتب جليلة القدر ولهذا قصدها الكثير من علماء ذلك الزمان وورد أن الفصيح علي بن أبي صالح العامري الكوفي المعروف بابن الصائغ المتوفى سنة ٦٥٠هـ الذي هو أيضاً من العلماء والأدباء، كان خازناً لكتب هذه الخزانة المهمة[2].

وممن قصدها من أهل العلم والأدب محمد بن سعد الله بن نصر بن سعيد ابن الدجاجي، والمؤرخ عبد الرزاق بن أحمد المعروف بالفوطي، وركن الدين عبد الصمد بن محمد الديلمي القزويني (المولود سنة ٦٥٦ هـ أو ٦٥٧ هـ) فسمع بها من ابن الصباغ، وحمل إليها محمد بن أحمد بن بختيار المعروف بابن المندائي الواسطي المتوفى ٦٠٥ هـ وهو طفل وسمع بها[3].

خزانة ابن الكوفي ولد ٢٥٤ هـ-٨٦٨م وتوفي ٣٤٨ هـ-٩٦٠م

أبو الحسن علي بن محمد بن عبيد الزبير الأسدي، كان عالماً مشهوراً بجودة الخط وأحد أفاضل أصحاب (ثعلب النحوي) ممن اتصف بالصدق والثقة في النقل كثير الاهتمام يجمع الكتب مولعاً باقتنائها وكان طالب العلم إذا قال: نقلت من خط ابن الكوفي، فقد بالغ في الاحتياط وكان لابن الكوفي مؤلفات عدة منها: كتاب الهمز، وكتاب معاني الشعر واختلاف العلماء فيه، وكتاب الفرائد والقلائد في اللغة، وقد وصفه ابن النديم بأنه (عالم صحيح،راوية، جمّاعة للكتب، صادق في الحكاية، منقّر بحاث...) وللدكتور حسين علي محفوظ جهود ثمينة في التعريف بهذا العالم الجليل إذ عثر – كما قال – بطريق الصدفة على مخطوطة قيمة عن صفة منازل مكة منسوبة لابن الكوفي، فاهتم من ذلك اليوم بالكتابة عنه وتتبع ترجمته وسيرته، ومن أهم ما ذكره عن ابن الكوفي: أنه رتب خزانته على العلوم ترتيباً خاصاً بارعاً مع تعيين أمكنتها، وأنه سبقنا إلى استعمال البطاقات والجزازات وهي الرقاع والوريقات

(١) راجع تاريخ بغداد ١٤/٥ – ٢٣ لسان الميزان ٢٦٣/١ فهرست الطوسي /٨٦ معالم العلماء /٧٧. المنتظم ٢٣٦/٦. شذرات الذهب٣٣٢/٢. تذكرة الحفاظ ٥٥/٣. منهج المقال /٤٣. رجال النجاشي ٦٨ ت ٥٩ ط الند. ميزان الاعتدال ١٣٦/١ – ١٣٨.

(٢) كما في تلخيص مجمع آداب ٤/ق ٤٧٣/٣ – ٣٧٤.

(٣) راجع عن ابن الأقساسي وخزانه: العمدة لابن عنبة، وتلخيص مجمع الآداب /٤ ق ٦٢٩ والمسجد المسبوك /٤٥، تجارب السلف /٣١٠، الدرجات الرفيعة (للسيد علي خان)/٥٠٥ والحوادث الجامعة /٢٢٠. نقباء الكوفة – خ –.

التي تعلق بها الفوائد، التي نسميها اليوم فيش Fiche في التأليف والجمع، وقد بيعت رقاعه ـ بعد وفاته ـ كل بطاقة بدرهم. والدرهم يساوي ٢١٥ فلساً عراقياً وفق تكسير سعر الدينار العراقي القديم في زمن ابن الكوفي على عشرة دراهم[١].

وكانت وفاة ابن الكوفي ببغداد ثم نقل جثمانه إلى النجف الأشرف ودفن بها[٢].

خزانة لأحد الكوفيين

هذه الخزانة المجهولة الاسم، لأحد الكوفيين المولعين بجمع الخطوط القديمة، ولا نعرف من أحواله سوى، أنه عاش على ما يظهر أيام الدولة الحمدانية (٣١٧ ـ ٣٩٤هـ /٩٢٩ ـ ١٠٠٣م).. وقد خصّ صديقه محمد بن الحسن ابن أبي بعرة بخزانة كتبه قبل وفاته، وهذه الخزانة على ما سيأتي من وصفها خزانة فريدة حوت الكثير من النفائس والمخطوطات القيمة لو لم يعفى عليها الزمن لعُدت اليوم مما نعتز به ونفخر.

قال ابن النديم في الفهرست ص ٦٠ ـ ٦١: (قال محمد بن اسحق: كان بمدينة الحديثة، رجل يقال له محمد بن الحسن ويُعرف بابن أبي بعرة، جمّاعة للكتب، له خزانة لم أر لأحد مثلها، تحتوي على قطعة من اكتب العربية في النحو واللغة والأدب والكتب القديمة فلقيت هذا الرجل دفعات فأنس بي، وكان نفوراً ضنيناً بما عنده، خائفاً من بني حمدان، فأخرج لي قمطراً كبيراً فيه نحو ثلاثمائة رطل جلود فلجان وصكاك وقرطاس مصر وورق صيني وورق تهامي وجلود آدمي وورق خراساني، فيها تعليقات على العرب وقصائد مفردات من أشعارهم وشيء من النحو والحكايات والأخبار والأسماء والأنساب وغير ذلك من علوم العرب وغيرهم. وذكر أن رجلاً من أهل الكوفة ذهب عني اسمه كان مستهتراً بجمع الخطوط القديمة، وأنه لما حضرته الوفاة خصه بذلك لصداقة كانت بينهما وأفضال من محمد بن الحسين عليه ومجانسة فرأيتها وقلبتها فرأيت عجباً، إلا أن الزمان قد أخلقها وعمل فيها عملاً أدرسها وأحرفها وكان على كل جزء أو ورقة أو مدرج توقيع بخطوط العلماء واحداً اثر واحد، فذكر فيه خط من هو، وتحت كل توقيع وتوقيع آخر بخمسة وستة من شهادات العلماء على خطوط بعض لبعض ورأيت في جملتها مصحفاً بخط خالد بن أبي الهياج صاحب علي رضي الله عنه ثم وصل هذا المصحف إلى أبي عبد الله بن حاني رحمه الله، ورأيت فيها بخطوط الإمامين الحسن والحسين. ورأيت عنده أمانات وعهوداً بخط أمير المؤمنين علي عليه السلام، وبخط غيره من كتاب النبي صلى عليه وسلم، ومن خطوط العلماء في النحو واللغة مثل أبي عمرو بن العلاء، وأبي عمرو الشيباني، والأصمعي، وابن الإعرابي، وسيبويه، والفراء، والكسائي، ومن خطوط أصحاب الخطوط مثل سفيان بن عيينة وسفيان الثوري والأوزاعي وغيرهم. ورأيت ما يدل على أن النحو عن أبي الأسود ما هذه حكايته وهي أربعة أوراق أحسبها من ورق الصيني ترجمتها هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود رحمة الله عليه بخط يحي بن يعمر، وتحت هذا الخط بخط عتيق: هذا خط فلان علاَّن النحوي وتحته: له خيراً ولا رأيت منه غير المصحف، هذا على كثرة بحثي عنه..).

من خزانات كتب أعلام الكوفة

حظيت الكوفة بجمهرة كبيرة من الأعلام المشاهير في مختلف العلوم وشتى الفنون والآداب وواكبت بعض هؤلاء الأعلام ظروف خاصة، من أبرزها رغبتهم في الاستزادة من المعارف والعلوم والاطلاع على الكتب النادرة أو الاتصال بأساتذة أكفاء ليرضوا بذلك طموحهم ومن أجل ذلك كانوا يتنقلون في الأمصار والحواضر الإسلامية، وبديهي أن لأغلب هؤلاء كانت خزانة كتب حافلة بالأسفار القيمة، بل لو لم تكن لديهم سوى مصنفاتهم لكوّنت خزانات كتب قيمة، ولما كانت قد دونت أخبار خزانات الكتب المتواتر على وجودها بالكوفة أضفت لها خزانتي الكندي الفيلسوف، وثعلب النحوي وهم من أنجبتهم الكوفة وانتقلوا بعد حين إلى بغداد، فأقاموا بها بقية حياتهم.. وقد آثرت ذكرها توخياً للفائدة.

خزانة ثعلب ولد ٢٠٠ هـ -٨٥١ م توفي ٢٩١هـ- ٩٠٣م

أبو العباس أحمد بن يحي بن زيد وهو النحوي المشهور بـ (ثعلب) مولى بني شيبان، وهو ثالث ثلاثة بعد الكسائي والفراء قامت على أعمالهم مدرسة الكوفة النحوية، وعُد في عصره مرجع أهل الكوفة في رواية أقوال الكسائي والفراء، ولثعلب مؤلفات عديدة وللأسف أن أكثر ما نسب إليه منها لم يبق منها إلا عنواناتها ومن كتبه، اختلاف النحويين ـ معاني القرآن ـ ما تلحن فيه العامة ـ شرح ديوان الأعشى ط ـ ما ينعرف وما لا ينعرف ـ المجالس ط ـ قواعد الشعر ط ـ شرح ديوان زهير ط ـ كتاب الفصيح ط. الخ كتبه التي تبلغ أكثر من أربعين كتاباً.

أما خزانة كتبه فقد بيعت بعد وفاته. قال ياقوت: أن ثعلباً خلَّف كتباً جليلة فأوصى إلى علي بن محمد الكوفي أحد أعيان تلاميذه، وتقدم إليه في دفع كتبه إلى أبي بكر أحمد بن اسحاق

(١) راجع بحث الدكتور محفوظ: (قصة المخطوط النادر) مجلة الأقلام البغدادية ج ٧ س ١ آذار ١٩٦٥ (١٣٥ - ١٤٠) وفيه يتعرض لجهوده العلمية في التعريف بابن الكوفي.

(٢) ينظر بشأن ابن الكوفي أيضاً: معجم أدباء ٣٢٦/٥. بغية الوعاة، الفهرست /١١٧ مصر. رجال النجاشي /٦٨ إيران خزائن الكتب المقدسة /٢٢١. رجال بحر العلوم ١٥٩/٣ - ١٦٢.

القطربلي فقال الزجاج للقاسم بن عبيد الله: هذه كتب جليلة، فلا تفوتك، فأحضر خيرأن الوراق فقيّم ما كان يساوي عشرة دنانير بثلاثة فبلغت أقل من ثلاثمائة دينار، فأخذها القاسم بها[1].

خزانة الكندي ولد حدود ١٨٨ هـ -٨٠٣م توفي حدود ٢٦٠هـ -٨٧٣م

أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي، فيلسوف العرب الأول، تلقى العلم في مسقط رأسه الكوفة وفي بغداد ونال شهرة واسعة بما ألفه من الكتب في مختلف فروع المعرفة والأدب والفلسفة، وذاع صيته في عصر المأمون والمعتصم، الخليفتين العباسيين وقد خلف من نتاجه الفكري (٢٦٥) مقالة وبحثاً في علوم الحساب والهندسة والنجوم والفلك والأنواء والجغرافية والطبيعة والسياسة والموسيقى والطب والفلسفة، وجنح الكندي إلى مذهب (الاعتزال) فلما تحول الفكر وظهر العداء للمعتزلين صودرت خزانة كتبه، وأصبح قاب قوسين وأدنى من الموت اغتيالاً، غير أن العاصفة مرَّت به فلم تحصد مع من حصدت من أهل الاعتزال.

وتعد خزانة الكندي من الخزائن النفيسة اهتم بجمعها واستنساخها والحصول عليها اهتماماً بالغاً، فكانت مطمح نظر معاصريه لتنوعها وتفردها بالكتب النادرة، وكانت إحدى أسباب الوشاية به والظغينة عليه وكان أكثر الناس حسداً له محمد وأحمد أبناء موسى بن شاكر فإنهما دبَّرا له مكيدة، فباعداه عن المتوكل وأخذا كتبه فأفرداها في خزانة خاصة سميت (الكندية) وقد ساق مفصل هذا الخبر أبي جعفر محمد بن يوسف الكاتب في كتابه المكافأة وحسن العقبى وأشار إلى أن الكندي استرد خزانته بعد أن ظهر زيف ما ادعاه عنه أبناء موس بن شاكر[2].

مكتبات المساجد الإسلامية

يعتبر المسجد من مظاهر الحضارة وعناصرها في الإسلام لأهميته الكبيرة في الحياة الدينية والسياسية والفكرية، ففيه تقام فرائض الدين وفيه يبايع الخلفاء والأمراء وتبحث أمور الحرب والسلم، وكثيراً ما تحدث فيه التجمعات السياسية، وكان الأمير يعلن فيه ما أنيط به من أمر وما اعتزمه.. وبقي المسجد إلى أواخر القرن الثالث الهجري على الأقل المدرسة التي يتلقى فيها الناس العلم والمعرفة، ويلتقي فيه العلماء والأدباء فيتناقشون أو يلقون المحاضرات في حلقاتهم وينشرون علمهم، كما يقوم القصاصون والوعاظ بوعظ الناس وإرشادهم وتبصيرهم بمبادئ الدين الإسلامي.

وقد صنَّف الكثير من الكتب في المساجد الإسلامية ويؤكد ذلك المخطوطات الكثيرة المنتشرة في أنحاء العالم وفيها يشير، مؤلفوها أو ناسخوها بأنها ألفت أو نسخت في عدد من المساجد. كما أن كتب التاريخ والتراجم تزخر بأخبار العلماء والفقهاء والأدباء الذين اتخذوا من المساجد أمكنة فيها يتزودون بالعلوم والمعارف وفيها يقيمون ويعيشون، ويدرسون ويتدارسون ويؤلفون آثارهم الفكرية، ومن أجل أن يحقق المسجد مطامح مريديه، وييسر عملهم العلمي فقد ألحق في كل مسجد مكتبة عامرة تضم عدداً وفيراً من الكتب في مختلف مواضيع الأدب والعلم، وتسابق الناس إلى تزويد المساجد بالكتب وكان بعض المسلمين يؤلفون الكتب ويضعونها في المساجد كوقف لتعم فائدتها بين الناس، ويكسب بها المؤلف الأجر والثواب، كما يحافظ على كتبه من أن تبددها الأيدي، وهكذا صارت بعض المساجد أشبه بالأكاديميات الثقافية، وكان لها الأثر الكبير في نجاح الدرس والتدريس والبحث والتصنيف.

وفي الكوفة عدد كبير من المساجد الإسلامية وهي منبثة في مختلف أرجائها وفي جميع طرقها ومحلاتها وأسواقها[3]. وفي هذه المساجد تعقد الحلقات العلمية للدرس والمناظرة والوعظ وأشهر مساجد الكوفة صيتاً، وأكثرها شهرة المسجد الجامع والذي ما زال عامراً بالحياة زاخراً بالعمران ويمكننا القول بأن خزانة كتب حافلة بنوادر المخطوطات كانت في هذا

(١) راجع عن ثعلب: أنباه الرواة ١٢٨/١. بغية الوعاة ٣٩٦/١. طبقات القراء ١٤٨/١. طبقات المفسرين /٤١ مرآة الجنان ٢١٨/٢. غاية النهاية ٤٥/١. روضات الجنات ٥٦/١. شذرات الذهب ٢٠٧/٢. تذكرة الحفاظ ٢١٤/٢ فهرست ابن النديم /١١٠. تاريخ بغداد ٢٠٤/٥. نزهة الألباء /٢٩٣. تهذيب اللغة ٢٣٥/٢. معجم الأدباء ١٠٢/٥. معجم الأدباء ١٠٢/٥ اللغة /٣٤. طبقات الزبيدي /١٥٥ - ١٦٧.

(٢) راجع المكافأة وحسن العقبى /١٩٥ - ١٩٨، والكندي أشهر من أن يذكر وقد طبعت كتبه التي عثر عليها وصدرت عن الكندي وفلسفته وشخصيته الكثير من الدراسات والأبحاث.

(٣) من أهم المساجد الإسلامية في الكوفة والتي حافظت على كيانها ومركزها حتى الوقت الحاضر هو المسجد الجامع الشهير بهذه المدينة، ومسجد السهلة ويرتقي عهدها إلى مستهل القرن الأول الهجري، ومن مساجدها الصغيرة الباقية: مسجد الحمراء، مسجد الحنانة، مسجد زيد بن صوحان، مسجد صعصعة بن صوحان، ومن مساجد الكوفة المندثرة: مسجد الأنصار، مسجد جهينة، مسجد كندة، مسجد ثقيف، مسجد تميم، مسجد بني أسد، مسجد مخزوم، مسجد عبس، وهي من المساجد القبلية، ومن مساجد العلماء: مسجد أبي إسحاق السبيعي، مسجد حمزة الزيات، مسجد إبراهيم النخعي، ومن مساجد المحلات مسجد المطمورة، مسجد خطة سعد بن همام، مساجد الكناسة وغيرها وتبلغ مساجد الكوفة التي استوفينا عنها البحث في كتابنا (مساجد الكوفة) حوالي تسعين مسجداً عدا المشاهد المقدسة.

المسجد الشريف، ويؤيدنا في ذلك كثرة ما وردنا من أنباء المحاضرات والمناظرات التي كان يغص بها المسجد يومياً بين العلماء والمحدثين والأدباء وفي كتب التاريخ والأدب أدلة واضحة على هذا النشاط الواسع[١]. ومما يؤيدنا أيضاً أن إسحاق بن مرار الشيباني وهو من اللغويين الكوفيين (توفي سنة ٢٠٦ هـ -٨٢١م) أنه جمع أشعار نيّف وثمانين قبيلة أخرجها إلى الناس في (مجلد) وجعلها في مسجد الكوفة[٢] ولا نستبعد وجود خزانة كتب مماثلة في (قصر الإمارة) تضم ما يحتاجه والي الكوفة ومنتسبو القصر، من مراجع وكتب تعينهم على مراجعة الأحكام والاستمتاع بالقراءات لا سيما أن الكثيرين من ولاة الكوفة كانوا أنفسهم من الشعراء أو الأدباء.

مكتبات الأديرة والكنائس

انتشرت في الكوفة وضواحيها أديرة وكنائس نصرانية عديدة وكانت هذه المراكز تجمع إلى وظيفتها الدينية وظائف اجتماعية أخرى، منها الدور الثقافي الذي تؤديه ويتمثل بما كانت تحفل به من نوادر المخطوطات ونفائس الكتب والتصانيف، فكان كل دير يختص بخزانة كتب مفتوحة لرواد الدير وزواره من مختلف الملل والنحل فهذا مؤرخ مسلم من أعلام الكوفة ومن مؤرخيها المشهورين كان يتردد على مكتبات الأديار الكوفية ومنها (بِيَع الحيرة) فقد حدَّث الطبري عنه بأنه قال: (أني كنت استخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة، ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة وفيها ملكهم وأمورهم كلها...)[٣].

وقد وصف الأستاذ عواد مكتبات الأديرة بأنها كانت تضم مجموعة من التآليف التي تتناول موضوعات دينية وأدبية وعلمية مختلفة كالكتب المقدسة وتفاسيرها،والفلسفة واللاهوت، وسير الشهداء والقديسين، والحياة الكنسية، والعبادات والطقوس الدينية، والأدب والشعر، وغير ذلك مما تحفل به رفوفها، وكانت خزانة الكتب مع الباحثين من الرهبان، فيها يطالعون وفيها يؤلفون وفيها ينسخون[٤].

(وللبحث صلة).

❖ ❖ ❖

(١) كان هذا النشاط مدعاة لازدحام الناس، ولما ولى زياد بن أبيه الكوفة سنة (٥٠هـ - ٦٧٠م) لاحظ الناس ذلك فزاد في سعة المسجد وجعله يتسع لتسعين الف شخص (ياقوت: معجم البلدان ٢٩٧/٧) أما النشاط العلمي الذي شهده مسجد الكوفة فقد اشتهر بكونه مدرسة لإقراء القرآن الكريم وفيه كان شيوخ الإقراء يجلسون فيلقنون طلاب العلم القراءات التي رووها بأسانيدهم، وكان عبد الله بن حبيب أول من جلس لإقراء القرآن في مسجد الكوفة ومن القراء الذين تخرجوا في هذا المسجد حمزة الزيات أحد أصحاب القراءات السبعة، وشيبان بن ثعلبة الكوفي وفي هذا المسجد ظهرت بوادر مبادئ الفقه المبني على التجرد واستنباط مفهومه من الكتاب والسنة، وفيه ظهرت مدرسة لتفسير القرآن وكان من أساتذتها التابعي سعيد بن جبير المستشهد سنة ٩٤ هـ وكان مسجد الكوفة محلاً لإنشاد الشعر ونقده والتلاحي فيه وفي علوم العربية الأخرى. ففيه جرت مناظرة ثعلب مع محمد بن حبيب وجرى فيه مجلس الكميت مع حماد والطرماح وغيرهما (ذكرهما الزجاجي في مجالس العلماء (٩٧ - ٩٨) (٢١٦ - ٢١٧) وفي الأغاني ١١٣/١٥ وفي طبعة ٢/١٧-٣ أشار لذلك، وفي مسجد الكوفة أنشد عمر بن حماد عجرد قصيدة لوالده (تاريخ ابن عساكر ٤٢٥/٤) وكان الكميت يعلم الصبيان في مسجد الكوفة (الأغاني ٢/١٧ - والشعر والشعراء ٤٨٥/) ومما يدل على أن المسجد الجامع في الكوفة كان مجمع القوم ومحل تواجدهم انظر الأحداث الواردة في الفاضل للوشاء ٣٧/٢- ٣٨. الأغاني ٣٥٥/١و٣٧/١٢- ٣٩ عيون الأخبار ٢٥٩/٢. حلية الأولياء ٢٧٠/١- ٢٨٣ و٢٢٠/٧.الجماهير للبيروني٦٩/١ أخبار شعراء الشيعة/٨٦. النجوم الزاهرة ٣٠٨/١.

(٢) الأعلام للزركلي ٢٨٩/١ وفي نزهة اللباب جاء النص هكذا عن عمرو بن أبي عمرو الشيباني (إسحاق بن مرار) قال: (لما جمع أبي أشعار العرب كانت نيفاً وثمانين قبيلة وكان كلما عمل منها لقبيلة وأخرجها للناس كتب مصحفاً وجعله ف مسجد الكوفة حتى كتب نيفاً وثمانين مصحفاً بخطه) وهو مغاير للأول انظر ص:٧٨ من طبعة د - السامرائي - بيروت ١٩٧٠.

(٣) تاريخ الطبري ٦٢٨/١ القاهرة ١٩٦٠. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ط١.

(٤) قدمة كتاب الديارات /٤٩ ط الثانية بغداد ١٩٦٦ وانظر الخزائن /٧٨ - ١٠٠ واللؤلؤ المنثور /٢٢-١٨٦ و ٤٧٣ ت ٤٨٤. عصر السريان الذهبي /٥٦ - ٥٧ وفي ذلك حديث واف عن المكتبات الديرانية.